

من عجب أن صحراء الجزيرة العربية ، مهد العربية والإسلام ، ظلت بمعزلٍ عن كل هاتيك الأحداث الكبار ، لا تكاد تحس حركة سير الزمن بلغة العرب وأمة القرآن ، ولا تدرى شيئاً عما ارتدنا وارتاد غيرنا من جديد الآفاق ، واكتشفنا واكتشفوا من مجاهل الكون وأسرار الحياة وموازين القوى ، وسخرنا وسخروا بإذن الله ، من ظواهر الطبيعة وخواص العناصر . . .

مضت قرون أربعة عشر ، وملايين المسلمين في شتى أقطار الأرض يولون وجوههم حينما كانوا شطراً المسجد الحرام في أم القرى ، مصبحين وممسحين وعشيياً وحين يُظهرون ؛ ومئات الألوف منهم يسعون إليه في موسم الحج من كل سنة قرية ، ملبين ضارعين :
لييك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك
غير أنهم قلما يتجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلا عن أن يوغلوا في الدهناء والربع الخالي . . .

وكلما هل هلال رمضان ، احتشدت مواكبهم لرؤيته ، وبدووا به موسمهم الديني الكبير صياماً ومجاهدة ، احتفالاً بالشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن هدى للناس وبيانات من الهدى والفرقان ، وقلوبهم تنزو في خشوع إلى غار حراء بمكة ، حيث بزغ نور الفجر الصادق .
وصحراء الجزيرة ، على مسار تلك القرون ، قائمة هناك بكل صمتها العميق وسرها المحجوب ، تترامى وراء أسوار جبالها الحاجزة عن تهامة وساحل البحر الأحمر ، ممتدة إلى شطوط الخليج ومشارف اليمن في عزلة موحشة : لا تعرفها دنيانا وإن تكلمت بلغتها ، وبايعت نبياً من صميم قبائلها ، وآمنت بدين حمله إليها عربٌ خلَّص من جند الإسلام الأولين .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى جماعات من البدو الرحل يهيمون في فلواتها ملتصقين بمواقع الغيث ومنازل المطر ؛ وعلماء الاستشراق في كبريات العواصم من عالم اليوم ، عاكفون على جمع ذخائر تراثها ودرس شخصيتها ، وطلاب الجامعات والمعاهد في المشرق والمغرب يدرسون أصيل الفصحى ويحفظون أمثال البدو وأراجيز الرعاة ، ويعرفون وقائع مهلهل وعنترة ، ومغامرات الصعاليك وقصص الفتيان ، ويسهرون على نار حاتم والمخلق ، ويشجيم على بعد الديار بكاء الأطلال ومراتي